المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦) ، ٣١٧ ـ ٣٤٩

# الحضورُ الألبَاني في مِصر العُثمانيَّة : الجَبَرتي مَصْدَرًا

محمد الأرناؤوط(*)

يتمتع عبد الرحمن الجبرتي بمكانة خاصة في المدرسة التاريخية المصرية حيث أنه يمثل بداية التحول من التاريخ التقليدي/ الحولي الذي يركز على تسجيل الأحداث إلى التاريخ الحديث الذي لا يكتفي فيه المؤرخ بتسجيل الأحداث[١] . وفي الواقع أن مكانة الجبرتي تتجاوز مصر حتى أن د. آيالون D. Ayalon وصفه في مقالته في «الموسوعة الإسلامية» بكونه «المؤرخ العظيم» الذي يمثل «ظاهرة فريدة في التاريخ عند المسلمين»[٢] .

---

(*) الأستاذ بقسم التاريخ والحضارة الاسلامية ـ جامعة العلوم الاسلامية العالمية ـ عمّان ـ الأردن .

(١) للمزيد حول مكانة الجبرتي في المدرسة التاريخية المصرية انظر الفصل الخاص به في هذين الكتابين : جمال الدين الشيال ، التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م ، ١٠ ـ ٢٧؛ جاك كرابس جونيور ، كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر ـ دراسة في التحول الوطني ، ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م ، ٦٥ ـ ٧٩.

(٢) D. Ayalon, *The Encyclopedia of Islam*, art. *al-Djabarti* vol. II, Leiden - E.J. Brill 1991, p.355.

وللمزيد حول رأي آيالون بالجبرتي انظر دراسته المبكرة :

D. Ayalon, «Historian al-Jabarti and his Background», *BSOAS* XXIII (1962), pp.217-249.

ويبدو بوضوح في مقدمة كتابه المعروف «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» وعي الجبرتي بالتاريخ كعلم وبالمهمة الملقاة على المؤرخ. فهو يركز على أن «التاريخ علم يبحث فيه معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم»، والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت، و«فائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها»[1]. ومن هنا يمكن القول إن إدراك الجبرتي لدوره كمؤرّخ هو الذي جعل كتابه «عجائب الآثار» متميزًا عن غيره مع أنه يمثل في الجوهر مدرسة التاريخ التقليدي/ الحولي، إذ أنه قدّم لوحة فسيفسائية كبيرة عن الأوضاع في مصر قبل وبعد الحملة الفرنسية، أو قبل وبعد وصول محمد علي إلى الحكم.

وفي هذا الإطار الفسيفسائي المتنوع والمتكامل، المليء بالتفاصيل عن الفئات والطوائف والجماعات الدينية والأثنية والعسكرية والاجتماعية الموجودة في مصر، يشكّل كتاب «عجائب الآثار» مصدرًا مهمًا للتعرف على الحضور الألباني في مصر قبل وبعد وصول محمد علي إلى الحكم.

وفيما يتعلق بالمنهجية المتبعة، التي تنبع منها قيمة ما لدينا في «عجائب الآثار»، يلاحظ أن الجبرتي لجأ إلى مصادر عديدة لجمع وتدوين المادة الموجودة في كتابه. فهو يذكر لنا أنه جمع مسودات كتابه من «أفواه الشيخة المسنين وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين وما انتقش على أحجار ترب المقبورين»[2]. ومع ذلك يميز الجبرتي بين ثلاث فترات حسب المصادر التي اعتمد عليها، وهذا ما يجعل الأصالة في كتابه تتراوح حسب هذه المصادر بين فترة وأخرى.

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ضبطه وصححه إبراهيم شمس الدين، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٩٧م، ١: ٧.

(٢) المصدر السابق ١١.

أما الفترة الأولى فهي المبكرة التي تغطي معظم القرن الثاني عشر الهجري، وبالتحديد من سنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م إلى سنة ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م، التي اعتمد فيها الجبرتي كما يقول على «كراريس لبعض العامة من الأجناد» الذي لم يصل إلينا، وكتاب أحمد عبد الغني المعروف «أوضح الإشارات فيمن ولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات» الذي يغطي بزخم أحداث النصف الأول للقرن الثاني عشر الهجري، أي إلى ما قبل ولادة الجبرتي بقليل. وتمتد الفترة الثانية من ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م إلى ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م التي تشتمل كما يقول الجبرتي على «أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكّرناها». أما الفترة الثالثة التي تتمتع بقيمة خاصة فهي التي تمتد من ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م إلى آخر يوم كان يكتب فيه (نهاية ذي الحجة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م) والتي تشتمل على «أمور تعلّقناها وقيّدناها وسطّرناها»[1]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجبرتي كتب الأجزاء الثلاث الأولى من «عجائب الآثار» خلال ١٢٢٠-١٢٢١هـ/ ١٨٠٥-١٨٠٦م، بينما كتب الجزء الرابع الأهم خلال الفترة التي كان يغطيها بشكل مباشر ١٢٢١-١٢٣٦هـ/ ١٨٠٦-١٨٢١م.

وفيما يتعلق بموقفه من الأطراف المختلفة التي كانت تتصارع على حكم مصر (المماليك والفرنسيون والأتراك والألبان) يلاحظ أن الجبرتي كان على معرفة جيدة بها نتيجة لمكانة والده العلمية والاجتماعية وشهرته الشخصية التي أوصلته إلى أن يعيّن في «الديوان الكبير» الذي أنشأه الفرنسيون في مصر[2]، ولذلك فقد كتب ما كتب نتيجة للمعرفة المباشرة والملاحظة الشخصية والجرأة التي يفترض أن تكون

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ١١.

(٢) للمزيد حول هذا الديوان ومشاركة الجبرتي انظر محاضر هذا الديوان التي صدرت مؤخرا: التاريخ المسلسل في حوادث الزمان ووقائع الديوان ١٨٠٠ - ١٨٠١ لإسماعيل الخشاب، تحقيق محمد عفيفي وأندريه ريمون، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ٢٠٠٣.

لمؤرخ واع لدوره. ومن هنا فقد سجلت له موضوعيته فيما يتعلق بما كتبه عن الفرنسيين[١]، كما يمكن أن تسجل له موضوعية هنا فيما يتعلق بموقفه من الألبان. فالجبرتي كان على معرفة جيدة بهم، وله صلة شخصية بزعمائهم قبل انفراد محمد علي بالزعامة على الألبان والسلطة على مصر، ولذلك فهو يجمع ما بين نقده لأغلبهم ومدحه لبعضهم. وفي إشارة ذات مغزى إلى محمد علي في نهاية مقدمة الكتاب يقول الجبرتي إنه لم يرد «أن يداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم»، وهو ما جعل «عجائب الآثار» غير مرغوب فيه في دولة محمد علي، حتى إن أول طبعة كاملة له لم تنجز إلا في سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩-١٨٨٠م[٢].

وللتعرّف بشكل أفضل على «عجائب الآثار» كمصدر عن الحضور الألباني في مصر يمكن تقسيمه إلى أربع فترات: ما قبل الحملة الفرنسية على مصر، وسنوات الحملة الفرنسية على مصر، والفترة الانتقالية ما بين خروج الفرنسيين من مصر، وصعود محمد علي، وتولي محمد علي للحكم في مصر.

---

(١) الشيال: التاريخ والمؤرخون في مصر ٢٦؛ كرابس جونيور: كتابة التاريخ في مصر ٦٩. وانظر بشكل خاص:

S. MOREH, *Al-Jabarti's Chronicle of the First Seven Months of the Frensh Occupation of Egypt,* (edited and translated by), Leiden - E.J. Brill 1975, pp.23-25.

(٢) حسب فون كريمر VON KREMER الذي زار مصر في سنة ١٨٥٠ كان كتاب «عجائب الآثار» مرجعًا نادر الوجود نظرًا لقيام السلطات بإتلاف أية نسخ تقع في أيديها وذلك بسبب نقد الجبرتي لعهد محمد علي. ولم يتغير الموقف إلا في عهد الخديوي إسماعيل، حيث طبع الكتاب أولًا على حلقات خلال ١٨٧٨ في جريدة «مصر» التي كانت تصدر في الإسكندرية قبل ظهوره كاملًا خلال ١٨٧٩ - ١٨٨٠م. وقد صدر لاحقًا في الفرنسية أيضًا خلال ١٨٨٨ - ١٨٩٦: كرابس جونيور: كتابة التاريخ في مصر ٦٨.

## ١ـ الحضور الألباني قبيل الحملة الفرنسية على مصر

بعد القرن الأول للحكم العثماني الذي تميّز بوجود ولاة يمثلون مركز السلطة، كان من بينهم بعض الألبان مثل محمد باشا دوكاجين وسنان باشا وغيرهم[١]، يلاحظ أن السلطة الحقيقية انتقلت في القرن الثاني إلى الأغوات/ البكوات المماليك الذين لم يتركوا للولاة سوى بعض المظاهر من السلطة. ولكن لا بد من القول هنا أن مفهوم «المماليك» الشائع قد تغير في هذه الفترة لأنه بالإضافة إلى الشركس الذين بقوا الأغلبية نجد بينهم الألبان والبشناق والأرمن وحتى بعض اليهود الذين أسلموا[٢].

ومن هذه الفترة يكشف لنا الجبرتي عن أحد البكوات/ الأمراء الألبان، هو حسين بك أرنؤد المعروف بأبي يدك، الذي يقدم عنه معلومات كافية للتعرف على كيفية قدوم وصعود هؤلاء الأشخاص في النخبة العسكرية الإدارية الحاكمة. فقد بدأ حسين بك سراجًا عند أحد البكوات/ الأمراء الشركس ثم ترقى بالتدريج إلى أن تولى الصنجقية والكشوفية في عدة أقاليم، وبذلك أصبح من البكوات/ الأمراء. وبالاستناد إلى الجبرتي فقد بقي حسين بك على صلة ببلاده إذ ذهب إلى

---

(١) كان الأول واليًا على حلب قبل ذهابه إلى مصر، بينما عين الثاني واليًا على الشام بعد مصر. للمزيد عنهما انظر كتابينا: معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في القرن السادس عشر - وقفية سنان باشا، دمشق ـ دار الحصاد ١٩٩٣م؛ دراسات في التاريخ الحضاري لبلاد الشام في القرن السادس عشر، دمشق ـ دار الأبجدية ١٩٩٥م، ٣٨ ـ ٥٤.

(٢) ميكل ونتر: المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم ومراجعة الدكتور عبد الرحمن الشيخ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م، ١٣٧.

وللمزيد حول تنقّل مركز السلطة الحقيقية ما بين الأغوات والبكوات خلال القرنين ١٧ ـ ١٨ انظر: جين هاثواي، سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية، ترجمة عبد االرحمن الشيخ، القاهرة (المشروع القومي للترجمة) ٢٠٠٣

«الروم» في ١١٢٤هـ/ ١٧١١م وبقي هناك إلى ١١٢٩هـ/ ١٧١٦م، ولكن لدى عودته إلى مصر فضّل أن يذهب إلى المدينة المنورة للمجاورة وبقي هناك أربع سنوات إلى وفاته في ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م[١].

وفي وقت لاحق برز من الألبان في هذه النخبة الحاكمة أحمد جاويش أرنؤد، الذي كان قد ارتقى إلى «باش اختيار وجاق التفكجية» قبل وفاته في التسعين من عمره في شوال ١٢٠١هـ/ ١٨٧٦م. وقد أشاد به كثيرًا الجبرتي الذي أدركه وعرفه جيدًا حتى قال عنه: «كان من خيار من أدركنا من جنسه ولم يخلف بعده مثله». ويؤكد الجبرتي هنا على أمرين نادرًا ما كان يجتمعان لدى شخصيات هذه النخبة الحاكمة. فهو من ناحية يشيد به باعتباره «من أهل الخير والدين والصلاح» والذي «يندفع في نصرة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسمعون لقوله وينصتون لكلامه ويتقونه ويحترمونه لجلالته ونزهته عن الأغراض». ومن ناحية أخرى يمتدحه الجبرتي لاهتمامه بالعلم إذ أنه «كان يحب أهل الفضائل ويحضر دروس العلماء ويزورهم ويقتبس من أنوار علومهم، ويذهب كثيرًا إلى سوق الكتبيين ويشتري الكتب ويوقفها على طلبة العلم». ومما له مغزاه هنا أن الجبرتي يعترف بأنه كان لهما شيخ مشترك (السيد مرتضى) حيث أن أحمد جاويش قد سمع عليه «صحيح البخاري ومسلم وأشياء كثيرة والشمائل والثلاثيات وغير ذلك». ومن هنا لا يعد من المستغرب أن تكون لأحمد جاويش مكتبة في بيته تضم «كتبًا نفيسة»، وقد وقفها قبل وفاته على مكتبة جامع شيخون العمري[٢].

ومن المعاصرين لأحمد جاويش كان هناك أيضًا في النخبة الحاكمة محمد آغا أرنؤد، الذي يذكره الجبرتي في حوادث ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م، ولكن دون أن

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ١: ١٢٦.

(٢) المصدر السابق ٢: ٢٦ - ٢٧.

يعطي عنه تفاصيل كافية . ويبدو من لقبه (آغا) أنه كان من الزعماء العسكريين في ذلك الوقت ، كما أن لقب «الجفلي» الذي أورده الجبرتي يوضح أنه كان ينتمي إلى عصبة الجفلية المعروفة ، التي كانت تُعدّ من الزمر المهمة في النخبة الحاكمة[١] . ولكن مع قدوم القائد العسكري حسن باشا في رجب ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م يبرز فجأة باعتباره «الوالي» أو «زعيم مصر» وذلك بعد أن قام حسن باشا بتقليده «آغات الجمليان» في شوال ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م[٢] .

ومع قدوم حسن باشا المذكور في رمضان ١٢٠٠هـ/ حزيران ١٧٨٦م كان قد قرأ الفرمان الذي يتضمن معرفة السلطان لـ«ما هو بالقطر المصري من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس وأن سبب ذلك خائنو الدين إبراهيم بك ومراد بك وأتباعهم» ، مما سمح لعدوهم اللدود إسماعيل بك بالعودة من منفاه بالشام وفرض سلطته على النخبة الحاكمة في القاهرة ، حتى أن الجبرتي استهل سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م بالقول «ومعها انفرد إسماعيل بك الكبير في إمارة مصر وصار بيده العقد والحل»[٣] . ولذلك فقد اندلع لاحقًا القتال بين إسماعيل بك وأنصاره وبين إبراهيم بك ومراد بك وأتباعهم الذين تمركزوا في الصعيد . ومع استمرار القتال بين الطرفين يكشف الجبرتي عن تطور مهم في منتصف رجب ١٢٠٢هـ/ نيسان ١٧٨٨م ألا وهو وصول «نحو الألف من عسكر الأرنؤد إلى ساحل بولاق وعليهم كبير يسمى إسماعيل باشا» ، فيما يبدو أنه دعم من استنبول لقتال قوات إبراهيم بك ومراد بك المتمركزة في الصعيد . وبعد أسبوع من وصول هذه القوة يخبرنا الجبرتي عن تطور مفاجئ ألا وهو قيام إسماعيل باشا «كبير الأرنؤد» بقتل رئيس

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ١: ١٩٠.

وللمزيد حول هذه العصبة أو الزمرة انظر : هاثواي : سياسات الزمر الحاكمة ١١٥ ـ ١٢٢

(٢) المصدر السابق ١: ٤٣٩.

(٣) المصدر السابق ٢: ٥٨.

عسكره لأنه «كان يخشاه ويخاف من سطوته» ولأنه هدّده بالذهاب إلى الصعيد لكون الأمراء هناك (إبراهيم بك ومراد بك) يدفعون عطايا أكثر للعسكر[١]. وبعد ذلك «سافر إسماعيل باشا بجماعته» كما يخبرنا الجبرتي إلى الصعيد لقتال «الأمراء القبليين» ولكن دون نتيجة حاسمة[٢].

وفي مطلع شهر رجب ١٢٠٣هـ/ آذر ١٧٨٩م غادر إسماعيل باشا «كبير الأرنؤد» بصحبة الوالي عبدي باشا، حيث يضيف الجبرتي هنا جملة ذات مغزى تقول بأن إسماعيل باشا «أبقى من عسكر القليونجية والأرنؤدية من اختارهم لخدمته وأضافهم إليه»[٣]، وهي أول إشارة إلى بقاء قوة عسكرية من «الأرنؤدية» في مصر. ومع هذا الوجود للعنصر الألباني الجديد أخذت تكثر الأخبار لدى الجبرتي عن «الأرنؤد».

وهكذا فهو يخبرنا عن قتال استمر خمسة أيام «بين عسكر القليونجية والأرنؤدية بسوق السلاح في مطلع شهر ذي الحجة ١٢٠٤هـ/ آب ١٧٩٠م، حيث «قتل بينهم جماعة من الفريقين، ثم تحزبوا أحزابًا فكان كل من واجه حزبًا من الطائفة الأخرى أو انفرد ببعض منها قتلوه»[٤]. وفي هذا السياق يخبرنا الجبرتي في أواخر ذي الحجة ١٢٠٤هـ/ ايلول ١٧٩٠م انقلاب مركب بـ «جماعة من الأرنؤد» عند الخليج المرخم، حيث «غرق منهم ستة أنفار وقيل سبع»[٥].

ويبدو أن إسماعيل بك الكبير، الحاكم الفعلي في القاهرة آنذاك، كان له مشروعه الخاص حيث أخذ يكثر من استقدام «الأرنؤد» من بلادهم لتجنيدهم في

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٣٧.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٩.

(٣) المصدر السابق ٢: ٥٥.

(٤) المصدر السابق ٢: ٦٢.

(٥) المصدر السابق ٢: ٦٢.

قواته ، كما وطلب من فرنسا «بعثة عسكرية» في ١٧٨٩م ، إلا أن باريس لم تستجب له بسبب الظروف المحلية والإقليمية المتغيرة[١] .

وفي هذا الإطار فقد قام إسماعيل بك بتوزيع «الأرنؤد» الذين استقدمهم على عدة مناطق ، وبالتحديد في بولاق والجيزة والقاهرة القديمة ، حيث أنه بذلك كان يحتاط لنفسه من أي هجوم مفاجئ من «الأمراء القبليين» . ويبدو أن «الأمراء القبليين» حاولوا اختراق هذا «الحاجز» بالتواطؤ مع أحد زعماء «الأرنؤد» ، ألا وهو «صالح آغا آغات الأرنؤد» . ففي منتصف محرم ١٢٠٥هـ/ ايلول ١٧٩٠م يذكر لنا الجبرتي أن إسماعيل بك قبض على المعلم يوسف كساب و«أمر بتغريقه في النيل» ونفى في اليوم ذاته صالح آغا المذكور لأنه قيل أنه تواطأ مع «الأمراء القبالي» بواسطة المعلم يوسف لكي «يملكهم المراكب الرومية والقلاع التي بناحية طرا والجيزة»[٢] .

ولكن الطاعون الكبير الذي ضرب مصر في ذلك الوقت قضى على إسماعيل بك والكثير من قواته «الأرنؤدية» التي كان قد استقدمها من بلادها . وهكذا يذكر لنا الجبرتي أنه في رجب وشعبان ١٢٠٥هـ/ آذار ونيسان ١٧٩٠م زاد الطاعون حتى انه «مات به ما لا يحصى ومنهم إسماعيل بك الكبير وعسكر القليونجية والأرنؤد الكائنون ببولاق ومصر القديمة والجيزة ، حتى كانوا يحفرون حفرة لمن بالجيزة»[٣] .

---

(١) هنري لورنس وآخرون : نابليون والحملة الفرنسية في مصر ، ترجمة : بشير السباعي ، القاهرة (سينا للنشر) ، ١٩٩٥م ، ١١٧، ١١٩.

(٢) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٦٤.

(٣) المصدر السابق ٢: ٦٧.

**٢ـ الحضور الألباني خلال سنوات الحملة الفرنسية على مصر**

مع قدوم سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨ـ١٧٩٩م التي يسميها الجبرتي «أولى سنة الملاحم العزيمة والحوادث الجسيمة» المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر تبرز عند الجبرتي بشكل ملفت بعض المعطيات التي تتعلق بالحضور الألباني في مصر.

وهكذا مع وصول الجيش الفرنسي إلى ضواحي القاهرة واندلاع القتال في إنبابه بالقرب من الأهرامات ٢١ تموز ١٨٩٨م، تم اختراق جيش المماليك حتى وصل الجنود الفرنسيون إلى متاريس مراد بك. وفي تلك اللحظة يشهد الجبرتي بحضور «عدة وافرة من عساكر الأرنؤد من دمياط»، حيث طلعوا إلى إنبابه و«انضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس». ولكن المعركة لم تدم طويلًا كما هو معروف، حيث فرّ مراد بك ومن معه إلى الجيزة، بينما «بقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة ملقاة على الأرض بين إنبابه تحت الأرجل»[١].

وبعد احتلال القاهرة تابع الجيش الفرنسي سيره باتجاه العريش، حيث حاصر قلعتها في أواخر شعبان ١٢١٣هـ/ شباط ١٧٩٩م. ويذكر الجبرتي هنا أنه كان في القلعة بعض المماليك و«صحبتهم نحو ألف عسكر مغاربة وأرنؤد». ويضيف الجبرتي أنه «لم يزل أهل القلعة يحاربون ويقاتلون حتى فرغ ما عندهم من البارود والذخيرة». فاستسلموا بعد أسبوعين من القتال. وقد أرسل حينئذ المماليك الأسرى إلى القاهرة بينما انقسم العسكر الذين استسلموا إلى قسمين: قسم رضي أن يتعاون مع الفرنسيين ويبقى في القلعة وقسم رفض ذلك فأطلق سراحه[٢].

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ١٣٣.

(٢) المصدر السابق ٢: ١٧٨.

وكان السلطان العثماني بعد أن وصلته أخبار الحملة الفرنسية على مصر قد أمر بإرسال جيشين كبيرين : الأول عبر البر بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، والثاني عبر البحر المتوسط بقيادة والي الأناضول مصطفى باشا الذي «حشد له عشرة آلاف من مشاة الأناضول والأرناؤوط» وأرسله مزودًا بالمدافع والسفن من سالونيك[١] . وفيما يتعلق بالجيش العثماني القادم من بر الشام ، الذي كان يتضمن الآلاف من «الأرنؤد» ، فقد تمكن أحد قواده (مصطفى باشا أرناؤوط ) من فتح قلعة العريش في ٣ شعبان ١٢١٤هـ/ ٣١ كانون الأول ١٧٩٩م[٢] . وبعد هذا النصر ، الذي كانت له «تواريخ لا نهاية لها لكثير من الشعراء يزيد عددهم عن نجوم السماء» ، انطلقت من العريش طليعة القوات العثمانية بقيادة طاهر باشا أرناؤط ، الذي كان قد برز خلال تقدم الجيش العثماني ، حيث «صحب المشار إليه جيش الإنكشارية وصحبه كذلك كافة جيوش الأرناؤط»[٣] . وعندما وصل طاهر باشا مع قواته إلى بلبيس ، قام القائد العام يوسف باشا بتعيين إبراهيم باشا قائدًا على جبهة دمياط و«أرسل معه حشدًا عظيمًا من الأرناؤط» ، وأرسل معه ممش آغا لأنه «في الأصل كان من طائفة الأرناؤط وذا جدارة وكفاية في ضبط جند الأرناؤط وربط أمورهم»[٤] .

وقد أدى هذا التقدم السريع للقوات العثمانية إلى إرغام قيادة الحملة الفرنسية على القبول بالصلح في شوال ١٢١٤هـ/ آذار ١٨٠٠م ، ولكن هذا الاتفاق سرعان ما انهار وعاد القتال بين الطرفين ، مما دفع قيادة الحملة إلى تحصين القاهرة

---

(١) الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني : مخطوط «ضيانامه» للدرارندلي ، دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م ، ١٩٧ـ١٩٨.

(٢) المصدر السابق ٢٧٦.

(٣) المصدر السابق ٣٢٧.

(٤) المصدر السابق ٣٣٢.

في وجه الهجمات العثمانية . وهنا يكشف لنا الجبرتي من قلب الأحداث في تلك الأيام كيف أنه «حضر نحو خمسمائة من عسكر الأرنؤد .. فلما قربوا من مصر (القاهرة) عارضهم عسكر الفرنساوية الواقفة على التلول الخارجة ، فحاموا ودافعوا عن أنفسهم منهم ودخلوا مصر»[١] . وقد أثار دخول هؤلاء «الأرنؤد» إلى القاهرة المحاصرة الحماس الكبير إذ «خرج الناس لقدومهم وضجت القلعة لحضورهم واشتدت قواهم ، واتفقوا أن يقولوا للناس إذا سئلوا أنهم حاضرون مددًا ، وسيأتي في أثرهم عشرون ألفًا» ، مما أدى إلى انتشار القتال ضد الفرنسيس في أرجاء القاهرة[٢] .

وفي غضون ذلك كان طاهر باشا قد تقدم «وفي معيّته نحو خمسة آلاف من مشاه الأرناؤط وفرسانهم» إلى الخانكاه ، حيث دارت بالقرب منها معركة عنيفة مع القوات الفرنسية انتهت بهزيمتهم[٣] . وبعد هذا الانتصار تحركت القوات العثمانية الإنجليزية باتجاه القاهرة ، حيث وصلوا إلى شبرا ، وحاصروا القاهرة من كافة الجهات . وقد صمّم «نحو ألفين من الشجعان من سائر الفرق ومن طائفة الأرناؤط والترك» على خرق الاستحكامات الفرنسية باتجاه حي الحسينية ، حيث استقبلوا بحماس كبير من السكان[٤] . وبعد استسلام الفرنسيين جرى في ٥ ربيع الأول ١٢١٦هـ/ ١٦ تموز ١٨٠١م تنظيم موكب حاشد في القاهرة تقدمه أمراء المماليك ووالي مصر والعلماء والمشايخ «ثم فرسان الديوانكان ، ثم فرسان الأرناؤط ، ثم جند أمير الطليعة طاهر باشا»[٥] ، الذي برز بسرعة كقائد للقوة الألبانية في القاهرة .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٢٣١.

(٢) المصدر السابق ٢: ٢٣١.

(٣) الدارندلي : ضيانامه ٣٣٩.

(٤) المصدر السابق ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٥) المصدر السابق ٣٥٦.

## ٣ ـ الحضور الألباني في مصر خلال الفترة الانتقالية ١٢١٦ـ١٢٢٠هـ/ ١٨٠١ـ١٨٠٥م

على الرغم من الحماس الظاهر على سكان القاهرة لانتصار القوات العثمانية وانسحاب القوات الفرنسية إلا أن الجبرتي بعين المؤرخ المدقق أخذ يتابع الوضع الجديد وما نجم عنه بالنسبة لسكان القاهرة الذي هو واحد منهم ويمثل مصالحهم ومشاعرهم.

وهكذا فقد أشار الجبرتي إلى ظاهرة جديدة في الأيام الأولى لعودة الحكم العثماني ألا وهي انشغال الجنود الجدد بالتجارة. فقد لاحظ الجبرتي امتعاض «أهل الأسواق لذلك» بعد أن «كثر الخبز واللحم والسمن وتواجدت البضائع وانحلت الأسعار وكثرت الفاكهة» التي «تعاطى بيع غالبها الأتراك والأرنؤد». فقد كان هؤلاء يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبحر والبر ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة وبولاق بأعلى الأثمان»[١]. ويسجل الجبرتي في شهر ربيع الأول ١٢١٦هـ/ تموز ـ آب ١٨٠١م أنه «كثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء في أصناف المأكولات» حيث أصبحوا «يحتكرون ما يريدون من الأصناف ويبيعونها بأعلى الأثمان ولا يسري عليهم حكم المحتسب». ولكن حتى المحتسب في ذلك الحين كان سليم آغا أرنؤد، الذي اضطر الوالي العثماني الجديد محمد باشا إلى قتله في ١٢ شوال ١٢١٦هـ/ ١٥ شباط ١٨٠٢م لامتصاص غضب العامة وإرهاب الباعة[٢].

ومن ناحية أخرى فقد حرص الوالي العثماني الجديد محمد باشا على ملاحقة بقايا المماليك فأرسل في ١١ جمادى الثانية ١٢١٦هـ/ ١٩ تشرين الأول ١٨٠١م

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٣٣٣.

(٢) المصدر السابق ٢: ٣٥٧.

طاهر باشا «بطائفة من العسكر الأرنؤد» إلى محمد بك الألفي بالصعيد، و«وقفت طائفة العسكر والأرنؤد بالأخطاط والجهات وخارج البلد يقبضون على من يصادفونه من المماليك والأجناد»[1].

ومع ذلك يبدو أنه خلال الشهور الأولى من عودة الحكم العثماني الجديد أن معظم العسكر الألبان قد تمركزوا في القاهرة، حيث كونوا قوة مهمة حسمت الأمور لصالحهم فيما عرف بـ«هبة الأرنؤد» في مطلع محرم ١٢١٨هـ/ نيسان ١٨٠٣م. وحسب الجبرتي فقد بدأت الحوادث في اليوم الأول للسنة الهجري (١ محرم ١٢١٨ هـ/ ٢٢ نيسان ١٨٠٣) حين ذهب «جماعة من كبار العسكر» إلى الوالي محمد باشا للمطالبة برواتبهم المتأخرة فحولهم إلى محمد علي سرششمة، حيث حدثت أول مناوشة. وفي يوم الجمعة ٧ محرم ١٢١٨هـ/ ٢٩ نيسان ١٨٠٣م حاصر «الأرنؤد» بيت الدفتردار فاستنجد بالوالي، إلا أن محمد باشا ردّ على ذلك بقصف بيت الدفتردار وجموع «الأرنؤد» من حوله. وفي يوم السبت ٨ محرم ١٢١٨هـ/ ٣٠ محرم ١٨٠٣م خرج محمد باشا بقواته من القلعة و«انقسموا فرقتين: فرقة أتت على رصيف الخشاب وفرقة على باب الهواء ليأخذوا الأرنؤدية بينهم ويحصروهم من الجهتين»، حيث دار قتال عنيف. وقد حسم الأمر تدخل طاهر باشا مع قواته، الذي تقدم من الرميلة إلى باب العزب ومنه إلى القلعة التي استولى عليها وأخذ منها يقصف بالمدافع قوات محمد باشا الذي فوجئ بذلك. وقد استمر القتال نهار السبت بكامله و«اشتد ليلة الأحد طوال الليل»، ولما أصبح يوم الاثنين «زحف عسكر الأرنؤد إلى جامع عثمان كتخدا والي حارة النصارى، وملكوا بولاق وعدوا بالغليون إلى بر انبابة، كما «ذهب طائفة منهم إلى قصر العيني وقبضوا على من به من عبيد الباشا وعرّوهم وأخذوهم

---

[1] الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٣٤٩.

أسرى» ، وقصفوا أخيرًا بيت الوالي إلى أن احترق مما أرغمه على الهروب من القاهرة[١] . وقد وصفه الجبرتي بهذه المناسبة بأنه «كان سيء التدبير ولا يحسن التصرف ويحب سفك الدماء ولا يتروى في ذلك ، ولا يضع شيئًا في محله ويتكرم على من لا يستحق ويبخل على من يستحق»[٢] .

وبعد أن انحسر الوضع عن سيطرة طاهر باشا على مقاليد الأمور اجتمع المشايخ عند القاضي صباح يوم الجمعة ١٤ محرم ١٢١٨هـ/ ٦ أيار ١٨٠٣م وذهبوا معه عند طاهر باشا ، حيث عملوا ديوانًا وقام القاضي بتقليد طاهر باشا القائمقامية إلى أن تحضر الولاية له أو لغيره ، و«كلموه على رفع الحوادث والمظالم وظنوا به الخيرية» ، وكتبوا بذلك محضرًا أرسلوه إلى استنبول[٣] . ومع هذا الانقلاب في مركز السلطة أخذ الفرز يبرز بوضوح داخل القوات العسكرية العثمانية بين «الأرنؤد» من ناحية وبقية الانكشارية من ناحية أخرى . ويوضح الجبرتي هنا أنه «لما خرج محمد باشا وظهر عليه الأرنؤد شمخوا على الانكشارية وصاروا ينظرون إليهم بعين الاحتقار مع تكبر الانكشارية ونظرهم في أنفسهم أنهم فخذ السلطنة»[٤] .

ويشهد الجبرتي هنا أنه مع تولي طاهر باشا السلطة «صار يدفع إلى طائفة الأرنؤد رواتبهم المتأخرة ولا يعامل بقية الإنكشارية بالمثل ، مما أثار حنقهم وبيتوا على قتله بالاتفاق مع والي المدينة» . وهكذا فقد اجتمع هؤلاء صباح الأربعاء ٤ صفر ١٤١٨هـ/ ٢٦ أيار ١٨٠٣م و«هم نحو المائتين وخمسين نفرًا بعددهم وأسلحتهم» عند طاهر باشا وألحوا في طلب رواتبهم المتأخرة ، فلما رفض ذلك

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٣٩١ ـ ٣٩٥.

(٢) المصدر السابق ٢: ٣٩٧.

(٣) المصدر السابق ٢: ٣٩٨.

(٤) المصدر السابق ٢: ٤٠١.

ضربوه بالسيف وقطعوا رأسه[١] . ولما انتشر الخبر في القاهرة اندلع قتال عنيف بين «الأرنؤد» وبقية الانكشارية ، وأُقيمت المتاريس في عدة جهات ، و«صار الانكشارية إذا ظفروا بأحد من الأرنؤد أخذوا سلاحه وربما قتلوه ، وكذلك الأرنؤد يفعلون معهم» . وقد بقي جثمان طاهر باشا مرميًا إلى اليوم التالي حيث دفن دون رأس بقبة في بركة الفيل إلى أن وجد رأسه ودفن مع جسمه[٢] .

وقد علّق الجبرتي على ما حدث لطاهر باشا بالقول أنه قد «زالت دولته وانقضت سلطنته في لحظة» ، حيث أنه لم يستمر في الحكم سوى ستة وعشرين يومًا . وبهذه المناسبة قدم الجبرتي صورة نادرة عن قرب لطاهر باشا حيث ذكر أنه «كان أسمر اللون ، نحيف البدن ، أسود اللحية ، قليل الكلام بالتركي فضلًا عن العربي ويغلب عليه لغته الأرنؤدية ، وفيه هوس وانسلاب للمسلوبين والمجاذيب والدراويش . وعمل له خلوة بالشيخونية ، وكان يبيت فيها كثيرًا ويصعد مع الشيخ عبد الله الكردي إلى السطح في الليل ويذكر معه»[٣] .

وقد تصادف حينئذ في ذلك النهار وجود أحمد باشا في القاهرة ، في طريقه إلى المدينة المنورة لولايتها ، فحاول استغلال الوضع وإقناع المشايخ بالعمل معه ، حيث طالبهم بجمع الناس وأمرهم بـ«الخروج على الأرنؤدية وقتلهم» . ولكن «ولاية» أحمد باشا كما يقول الجبرتي لم تستمر سوى «يومًا وليلة لا غير» (مساء

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٤٠١.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٠١.

وتجدر الإشارة إلى أن أخويه حسن باشا وعابدين بك قاما لاحقا في ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م بإنشاء مسجد كبير عند هذه القبة ، وهو يعتبر من المساجد القيمة التي بنيت في القاهرة خلال العهد العثماني . ومع أن اللوحة المثبتة على الباب توضح أن بناء المسجد قام به الأخوان المذكوران إلا أن هذا المسجد اشتهر ولا يزال باسم «مسجد حسن باشا» . للمزيد عن هذا المسجد انظر : حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤، ٣٥٧ـ٣٥٩.

(٣) المصدر السابق ٢: ٤٠٢.

الأربعاء ٤ صفر ونهار الخميس ٥ صفر ١٢١٨هـ/ ٢٦ ـ ٢٧ أيار ١٨٠٣م) . إذ تحالف ضده «محمد علي والأرنؤد» الذين كانوا يسيطرون على القلعة وأمراء المماليك بزعامة إبراهيم بك ، الذي وجه إنذار لأحمد باشا بمغادرة القاهرة فورًا ، حيث خرج من بيته في حالة مزرية مساء يوم الخميس ٥ صفر هـ/ ٢٧ أيار ١٨٠٣م و«دخل الأرنؤد ونهبوا جميع ما فيه»[١] .

ويذكر الجبرتي في هذا السياق كيف أن «الأرنؤد» في أنحاء القاهرة عمدوا إلى الانتقام من العسكر «الأتراك» الذين كانوا وراء اغتيال طاهر باشا . وهكذا فقد «استمر الأرنؤد كلما مرت منهم طائفة ووجدوا شخصًا في أي جهة له شبه بالأتراك قبضوا عليه وأخذوا ثيابه» . كما أنهم تمكنوا في يوم الاثنين ٩ صفر من قتل اثنين من قواد الإنكشارية الأتراك (إسماعيل آغار وموسى آغا) اللذان قتلا طاهر باشا[٢] .

وفي هذا الإطار من التحالف الجديد بين زعماء المماليك وزعماء «الأرنؤد» في هذا الوضع الانتقالي يخبرنا الجبرتي عن قيام عثمان بك البرديسي بعمل «عزومة» حضرها إبراهيم بك و«محمد علي ورفقاؤه» ، حيث «ألبسوا محمد علي ورفقاءه خلعًا» . وقد تكررت هذه «العزومة» في اليوم التالي لابن أخي طاهر باشا ، الذي كان يسيطر على القلعة . ويبدو أن زعماء المماليك كانوا يسعون بذلك لكسب ود «الأرنؤد» ليحلوا محلهم في القلعة . وقد تم هذا في يوم الأحد ٥ صفر ١٢١٨هـ/ ٢٧ أيار ١٨٠٣م عندما «نزل ابن أخي طاهر باشا من القلعة ومن معه من أكابر الأرنؤد وأعيانهم وعساكرهم ... وسلموا القلعة إلى الأمراء المصرلية» ، ولكن بقي فيها «طائفة من الأرنؤد وعليهم كبير يقال له حسن القبطان»[٣] .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٤٠٤.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٠٥.

(٣) المصدر السابق ٢: ٤٠٧.

وقد تعزز هذا التحالف الجديد بين زعماء المماليك وزعماء «الأرنؤد» مع قدوم الوالي الجديد علي باشا الطرابلسي في أواخر ربيع الأول ١٢١٨هـ/ حزيران ١٨٠٣م. وكان علي باشا قد أرسل من الإسكندرية كتابًا إلى زعماء المماليك يلومهم فيه على قدومهم إلى القاهرة و«معاونة الأرنؤدية وقتل رجال الدولة والإنكشارية»، ولكنه وعدهم بتأمين عفو لهم من الدولة. وهكذا وصل بالفعل في شعبان ١٢١٨هـ/ تشرين الثاني ١٨٠٣م «الخط الشريف» الذي يحمل «الرضا عن الأمراء المصرلية بشفاعة صاحب الدولة الصدر الأعظم يوسف باشا»[١]. ولكن علي باشا كان يراسل في الوقت نفسه زعماء «الأرنؤد» ويمنيهم بالوعود في حالة وقوفهم معه ضد زعماء المماليك. وقد اطلع زعماء «الأرنؤد» أمراء المماليك على هذه المراسلات، واتفق الطرفان على التظاهر بعدم معرفة ما يخطط له علي باشا. ويذكر الجبرتي كيف أن الطرفان تحايلا عليه عند وصوله إلى ضواحي القاهرة، حيث استولوا على مراكبه وأقنعوه بعدم دخول القاهرة مع الإنكشارية لأن «البلدة في قحط وغلاء والعساكر العثمانية منحرفوا الطباع ولا يستقيم حالهم مع الأرنؤدية ويقع بينهم ما يوجب الفشل». وفي منتصف شوال ١٢١٨هـ/ أواخر كانون لثاني ١٨٠٤م حدث قتال مفاجئ في عسكر علي باشا سقط معه صريعًا. ولا يخفي الجبرتي هنا ارتياحه لما حدث له لأن «كل ذلك وبال فعله وسوء سريرته وخبث ضميره»، حيث يكشف أن علي باشا وعد عسكره بالقول «إن بلغت مرادي من الأمراء المصريين وظفرت بهم وبالأرنؤد أبحت لكم المدينة والرعية ثلاثة أيام تفعلون بها ما شئتم»[٢].

وبعد هذا النجاح للتحالف الجديد أقنع أمراء المماليك زعماء «الأرنؤد» بخروج من بقي منهم من القلعة التي آلت إليهم تمامًا. وهكذا يخبرنا الجبرتي عن تطور

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٤٢٥.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٣٤.

مهم حصل في يوم الاثنين ١ ذي القعدة ١٢١٨هـ/ ١٢ شباط ١٨٠٤م عندما «أنزلوا حسين قبطان ومن معه من عسكر الأرنؤد من القلعة ، وكانوا نحو الأربعمائة فذهبوا إلى بولاق ، وسكنوا فيها بعد أن أخرجوا السكان من دورهم بالقهر عنهم» ، و«لم يبق بالقلعة من أجناسهم سوى الطبجية المتقيدين بخدمة المصرلية»[١] .وهكذا يوضح لنا الجبرتي هنا بامتعاض عن كيفية تحول بولاق إلى مركز لسكن هذا العدد الكبير من «الأرنؤدية» الذين نزلوا من القلعة واستقروا هناك .

وفي هذا السياق يكشف الجبرتي عن دور اللاعب الرئيس وسط ما يجري في القاهرة ، ألا وهو محمد علي ، الذي يبدو أنه المخطط لكل ما يجري من وراء ستار . وهكذا يوضح الجبرتي أن محمد علي هو الذي «حرش العساكر على محمد باشا وأزال دولته» وذلك بـ«معونة طاهر باشا والأرنؤد» ، ثم ينسب إليه تحريضه للأتراك ضد طاهر باشا «حتى أوقع به أيضًا» . ولما ظهر على الساحة أحمد باشا تحرك محمد علي و«أزاله بمعونة الأمراء المصرلية» . وبفضل هذا التحالف الجديد مع أمراء المماليك نجح محمد علي في «التحيل على علي باشا الطرابلسي حتى أوقعوه في فخهم وقتلوه ونهبوه» . وبعد ذلك جاء الدور على أمراء المماليك ليتخلص منهم ، حيث أنه أيد عثمان بك البرديسي ضد محمد بك الألفي ليتفرغ أخيرًا للتخلص من البرديسي الذي كان قد «تآخى معه وجرح كل منهم نفسه ولحس من دم الآخر» . ولأجل ذلك كما يوضح الجبرتي ، قام محمد علي بلعبة مثيرة حيث أن رجاله فرضوا ضريبة (فردة) جديدة و«نسب فعلها للبرديسي فثارت العامة» . وعند ذلك «تبرأ محمد علي والعسكر من ذلك وساعدوهم في رفعها عنهم ، فمالت قلوبهم إليه ونسوا قبائحهم وابتهلوا إلى الله في إزالة الأمراء»[٢] .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٤٣٧.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٤٤.

وهكذا ، بعد أن رتب محمد علي كل هذه الحركات ، جاء اليوم الذي قرّر فيه التخلص من البرديسي والانفراد بالزعامة . ففي ٢٨ ذي القعدة ١٢١٨هـ/ ١٠ آذار ١٨٠٤م اجتمع «الأرنؤدية» في الأزبكية ، التي كانت المركز الآخر لتجمعهم في القاهرة ، حيث أرسلوا من هناك قواتهم لحصار البرديسي وإبراهيم بك في مقرهما . وبعد استسلام وانسحاب البرديسي مع من بقي من رجاله استسلم وانسحب أيضًا إبراهيم بك ، وكذلك «الذين بالقلعة من الأمراء» بعد أن أخذوا «يضربون بالمدافع والقنابر على بيوت الأرنؤد بالأزبكية» إلى أن «تحققوا خروج إبراهيم بك والبرديسي ومن أمكنه الهرب» . وبهذا تمكن محمد علي وجماعته من الصعود إلى القلعة وتسلمها «من غير مانع»[١] .

وقد تزامن ذلك مع قدوم الوالي الجديد المعين من إستنبول (أحمد باشا) وقدوم قوات جديدة من الدلاتية[٢] من برّ الشام الذين أنزلوا في القاهرة القديمة وأخذوا بترويع السكان هناك[٣] ، مما أفسح المجال لمحمد علي للتحرك من جديد لإزالة أحمد باشا من طريقه كما يذكر الجبرتي[٤] . وهكذا حضر في أول صفر ١٢٢٠هـ/ أول أيار ١٨٠٥م حشد من سكان القاهرة القديمة إلى الجامع الأزهر «يشكلون ويستغيثون من أفعال الدلاتية» مما دفع المشايخ إلى الصعود إلى القلعة ومطالبة الوالي بالتدخل . ولما عجز أحمد باشا عن السيطرة على هؤلاء الدلاتية اجتمع المشايخ صباح يوم الخميس بالأزهر وتركوا التدريس فيه . وقد استمر هذا «الإضراب» عن التدريس إلى يوم الجمعة ١٠ صفر ١٢٢٠هـ/١٠ أيار ١٨٠٥م و«غالب الأسواق والدكاكين مقفلة» . وقد تصادف في ذلك الوقت وصول فرمان من السلطان

---

(١) المصدر السابق ٢: ٤٤٥.

(٢) الدلالاتية .

(٣) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٤١.

(٤) المصدر السابق ٣: ٤١.

بتعيين محمد علي واليًا على جدة ، ولكنه امتنع عن الصعود إلى القلعة لقبول الخلعة مما أرغم أحمد باشا إلى الهبوط إلى المدينة ، حيث حوصر هناك من العسكر الناقمين عليه . وفي هذا الوضع اجتمع العلماء صباح الاثنين ١٣ صفر ١٢٢٠هـ/ ١٣ أيار ١٨٠٥م في بيت القاضي ، و«كذلك اجتمع الكثير من العامة» هناك وركب الجميع إلى بيت محمد علي بالأزبكية وقالوا له «إنا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا ولا بد من عزله» ، ولما سألهم عمن يريدونه أجابوه «لا نرضى إلا بك وتكون واليًا علينا بشروطنا» ، فامتنع أولًا ثم رضي[1] .

ويكشف الجبرتي هنا عن أمر مهم ألا وهو الانقسام بين زعماء «الأرنؤد» حول هذا التطور المفاجئ ، إذ أن بعضهم أيد محمد علي بينما انحاز بعضهم إلى الوالي «المخلوع» من قبل العلماء . وهكذا يذكر الجبرتي أنه «طلع عمر بك الأرنؤدي الساكن ببولاق عند الباشا بالقلعة» وكذلك صالح آغا قوش ، وهما من أهم زعماء «الأرنؤد» في تلك الفترة ، وذلك لتأييده في موقفه .ويضيف الجبرتي أن «محمد علي والمشايخ كتبوا مراسلة إلى عمر وصالح آغا قوش المعضدين لأحمد باشا المخلوع ويذكران لهما ما اجتمع عليه رأي الجمهور من عزل الباشا ، ولا ينبغي مخالفتهم وعنادهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم» . ولكن عمر آغا وصالح آغا طلبا «سندًا شرعيًا في ذلك» ، مما جعل المشايخ يجتمعون في يوم الخميس ١٦ صفر ١٢٢٠هـ/ ١٦ أيار ١٨٠٥م ويكتبون فتوى حول ذلك . ومع أنه نتيجة لذلك كما يضيف الجبرتي «نزل كثير عن إقناع الباشا وانحل عنه طائفة الينكجرية» إلا أنه «لم يبق مع إلا طوائف الأرنؤد المغرضون لصالح آغا قوش وعمر آغا»[2] .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٤٣.

(٢) المصدر السابق ٣: ٤٤.

ويبدو أن المشايخ قد وسطوا أخوة طاهر باشا، الذين بقوا بعد قتله في القاهرة وأصبحوا من زعماء «الأرنؤد»[١]، حيث ذهبوا أولًا عند حسن بك. وفي يوم الجمعة ٢٤ صفر ١٢٢٠هـ/ ٢٤ أيار ١٨٠٥م طلع أخوه عابدي بك إلى القلعة وأنزل من هناك عمر بك وأزال المتاريس.

وفي اليوم التالي ركب الشيخ عمر وكرم في قلة من الناس وذهب إلى بيت حسن بك، حيث كان هناك عمر بك بعد نزوله من القلعة. وينفرد الجبرتي هنا بنقل نقاش مثير بين العمرين (عمر مكرم وعمر آغا) حول شرعية ما حدث. فقد استنكر عمر آغا ما حدث سائلًا عمر مكرم «كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، فرد عليه عمر مكرم: أولوا الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة»[٢].

وقد حسم الأمر أخيرًا في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ١٢٢٠هـ/ ١٠ حزيران ١٨٠٥م مع وصول رسول السلطان العثماني الذي كان يحمل الفرمان بتثبيت محمد علي في الولاية. ويصف لنا الجبرتي الموكب الكبير الذي خرج في ذلك

---

(١) يبدو أن أخوة طاهر باشا المقتول (حسن بك وعابدين بك) كانت لهم مكانة مهمة بين زعماء «الأرنؤد» وكان محمد علي يحسب حسابهم. فالجبرتي يكشف لنا أنه بعد التخلص من الوالي علي باشا الطرابلسي صعد محمد علي إلى القلعة وأخلى سبيل الوالي السابق محمد باشا المحبوس هناك في أواخر ذي القعدة ١٢١٨هـ، حيث شاعت إشاعة تقول بتولي محمد باشا لمصر حتى أن المشايخ ركبوا مع المحروقي إلى بيت محمد علي ليباركوا الولاية لمحمد باشا. ولكن في مطلع ذي الحجة ١٢١٨هـ/ جرى تسفير محمد باشا بعد هذه «الولاية الكذابة» التي استمرت ليلة ويومًا. ويوضح هنا الجبرتي أن السبب في ذلك كما قيل أخوة طاهر باشا، الذين كانوا ينفرون منه بسبب قتل أخيهم. ولذلك حين «رأى محمد علي نفرتهم وانقباضهم من ذلك وعلم أنه لا يستقيم حاله معهم وربما تولد بذلك شر، عجل بسفره وذهابه». (الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٤٤٧).

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٤٥ـ٤٦.

اليوم ، والذي تقدمه «كتخدا محمد علي وأكابر الأرنؤد وطائفة من العسكر كبيرة والوجاقلية وكثير من الفقهاء العاملين رؤوس العصب ، وأهالي بولاق ومصر القديمة» إلى بيت محمد علي بالأزبكية ، وبعد أن «حضر المشايخ والأعيان» قرأ هناك الفرمان بتثبيت محمد علي واليًا على مصر «حيث رضى بذلك العلماء والرعية»[1] .

## ٤ ـ الحضور الألباني في مصر بعد وصول محمد علي إلى الحكم

على الرغم من الانقسام الذي حصل بين زعماء «الأرنؤد» في صفر ١٢٢٠هـ/ أيار ١٨٠٥م حول الموقف من الوالي الجديد أحمد باشا ، حيث انحاز محمد علي وبعض زعماء «الأرنؤد» إلى صف علماء الأزهر الذين طالبوا وأفتوا بعزله ، بينما وقف بعض زعماء «الأرنؤد» مثل عمر بك وصالح آغا مع الوالي المعزول ، إلا أن الظروف التي واكبت تولي محمد علي للحكم أدت إلى تعاضد الجميع في وجه الخطرين الذين كانا يهددان الحكم الجديد : المماليك من الجنوب والإنجليز من الشمال[2] . ولكن هذا التعاضد بين زعماء «الأرنؤد» سرعان ما انهار بعد انحسار الخطر المشترك المملوكي/ الإنجليزي ، وعاد الانقسام القديم على أشده وصولًا إلى ما عرف بـ «نزاع» رمضان ١٢٢٢هـ/ تشرين الثاني ١٨٠٥م الذي خلده التراث الشعبي الألباني في عدة قصائد ، وكما في بقية الأمور فإن الجبرتي يمثل هنا مصدرًا مهمًا لمعرفة أسباب وتطورات ونتائج النزاع بين زعماء «الأرنؤد» .

ويكشف الجبرتي هنا عن أن بداية هذا «النزاع» تعود إلى يوم الاثنين ٢٣ شعبان ١٢٢٠هـ/ ١٦ تشرين الثاني ١٨٠٥م عندما «اجتمع عسكر الأرنؤد والترك على بيت محمد علي وطلبوا علائفهم فوعدهم بالدفع ، فقالوا لا نصبر وضربوا بنادق

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٥١.

(٢) المصدر السابق ٣: ٦٠، ٦٧، ٧١، ٨٠ـ٨١، ٨٤ـ٨٥. ١٢٩، ١٣٣ إلخ .

كثيرة ... ثم انصرفوا وتفرقوا وارتجت البلدة» . وفي اليوم التالي (الأربعاء) بقي «الحال على ما هو من الاضطراب» ولذلك فقد انتقل محمد علي من داره بالأزبكية إلى القلعة لشعوره بالخطر على حياته . ومع اكتشاف العسكر لذلك ساد الهرج يوم الخميس واستمر عليه حتى يوم الجمعة ، حيث جرت تداخلات جديدة بين القوى العسكرية المختلفة الموجودة في القاهرة (الأرنؤد والأتراك والدلاتية) . وهكذا يوضح الجبرتي المتابع للحوادث كيف انتهى إليه الأمر آنذاك : «الأرنؤد فرقتان : فرقة تميل إلى الأتراك وفرقة تميل إلى جنسها ، والدلاة تميل إلى الأتراك وتكره الأرنؤد»[1] .

ومع هذا الانقسام الجديد بين زعماء «الأرنؤد» تطور الأمر فجأة في يوم الخميس ١٨ رمضان ١٢٢٢هـ/ ١٩ تشرين الثاني ١٨٠٥م عندما «قصد محمد علي نفي رجب آغا الأرنؤدي وأرسل إليه يأمره بالخروج والسفر بعد أن قطع خرجه وأعطاه علوفته» ، حيث كان من الزعماء الذين حرضوا العسكر عليه في نهاية شعبان ١٢٢٢هـ/ تشرين الثاني ١٨٠٥م . ولكن رجب آغا رفض السفر بحجة وجود حساب قديم له مع محمد علي . إلا أن الجبرتي يفسر هذا الرفض للسفر بأمر آخر ألا وهو أن رجب آغا وأمثاله كان « لا يهون لهم مفارقة مصر التي صاروا فيها أمراء وأكابر بعد أن كانوا يتخبطون في بلادهم ويتكسبون بالصنائع الدنيئة»[2] .

ومع استمرار هذا «العناد» كما يسميه الجبرتي ، والذي يشتهر به «الأرنؤد» ، قام رجب آغا بـ«جمع جيشه إليه من الأرنؤد بناحية سكنه» في بيت اللوق ، مما دفع محمد علي إلى إرسال قوة من «الأرنؤد» من باب الخرق كما وحضرت قوة من الأتراك من جهة المدابغ وأقيمت المتاريس بين الطرفين مما روّع السكان هناك ،

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ١٥٥.

(٢) المصدر السابق ٣: ١٥٧.

حيث شاهد الجبرتي بأم عينه ما حصل للبيوت المجاورة[١] . وقد تدخل في هذا «النزاع» ليلة الأحد / الاثنين ١٢ رمضان ١٢٢٢هـ/ ١٣ تشرين الثاني ١٨٠٥م «عمر بك كبير الأرنؤد الساكن ببولاق وصالح قوج» ، اللذان كانا قد وقفا ضد تولية محمد علي وأيدا أحمد باشا «المخلوع» فأخذا رجب آغا إلى بولاق «وبطل الحرب بينهم ورفعوا المتاريس في حينها وانكشفت الواقعة عن نهب البيوت ... ومات فيما بينهم أنفار قليلة وكذلك مات أناس وانجرح أناس من أهل البلد»[٢] . ومع ذلك فقد أصر محمد علي على سفر رجب آغا من مصر ، وهو ما تحقق في ٢٥ رمضان ١٢٢٢هـ/ ٢٦ تشرين الثاني ١٨٠٥م ، ولكن الجبرتي يوضح أنه قد «تخلف عنه كثير من عساكره وأتباعه» من «الأرنؤد» الذين بقوا في القاهرة[٣] .

ولكن الموقف بين هؤلاء (محمد علي وعمر بك وصالح آغا) سرعان ما تعقد مرة أخرى في ذي الحجة ١٢٢٢هـ/ ٣٠ كانون لثاني ١٨٠٨م بسبب ياسين بك . وكان محمد علي قد أنعم على ياسين بك عند قدومه إلى القاهرة ودفع إليه كل ما طلب لكي «يسافر مع أتباعه إلى الإسكندرية لمحاربة الإنكليز» ، وحتى أنه «قلد أباه كشوفية الشرقية» في ربيع الأول ١٢٢٢هـ/ أيار ١٨٠٧م . ولكن ياسين بك جمع بحجة القتال ضد الإنكليز كل «عاهر وأزعر ومخالف وعاق ... وتطلعت نفسه للرياسة وداخله الغرور ، وانتشرت أوباشه يعبثون في الضواحي» . وبهذا أصبح الخطر يتهدد القاهرة نفسها ، مما أرغم محمد علي في ١٩ ربيع الأول ١٢٢٢هـ/ ٢٧ أيار ١٨٠٧م على «أمر عساكره الأرنؤد بالاجتماع إليه والخروج إلى ناحية بولاق ... وأحالوا بينه وبين بولاق ومصر»[٤] . وبعد توسط الزعماء

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ١٥٧.

(٢) المصدر السابق ٣: ١٥٨.

(٣) المصدر السابق ٣: ١٥٧.

(٤) المصدر السابق ٣: ١٤١.

للصلح بينها تكرر الموقف نفسه عندما أرسل محمد علي ياسين بك لقتال المماليك في الصعيد في ذي الحجة ١٢٢٢هـ/ شباط ١٨٠٨م، ولكنه انهزم وولى هاربًا إلى المنية مما أثار عليه غضب محمد علي. ولذلك عندما حضر بطلب من محمد علي إلى القلعة أراد أن يقتله فـ «تعصب له عمر بك الأرنؤدي وصالح قوج وغيرهما». وبعد عدة أيام (الجمعة ٢٢ ذي الحجة ١٢٢٢هـ/ ٢٠ شباط ١٨٠٨م) «تكلم عمر بك وصالح آغا مع الباشا في أمره وأن يقيم في مصر»، ولكن محمد علي أصر على قتله ووافق أخيرًا على سفره على قبرص»[1].

ويبدو أن ما حصل قد ترك أثره على العلاقة المتوترة في الأصل بين محمد علي وعمر بك وصالح آغا، حتى جاءت الفرصة المناسبة لكي يحسم محمد علي أمره ويتخلص منهما. ففي صفر ١٢٢٤هـ/ آذار ١٨٠٩م كان قبودان بولاق يقوم بتجهيز حملة ضد المماليك في الصعيد وأراد أخذ مركب يخصّ «شخصًا من الأرنؤد الذين يتسببون في بيع الغلال عند قرية تسمى سهرجت فحجره ليأخذ منه السفينة»، ولكن «الأرنؤدي» رفض وقتل القبودان عندما سلّ عليه سيفه. وقد هرب هذا «الأرنؤدي» إلى بولاق والتجأ هناك عند عمر بك الأرنؤدي. وقد امتعض محمد علي من ذلك وطلب من عمر بك «الأرنؤدي القاتل للقبودان»، وشدّد في طلبه حتى أنه هدد عمر بك بإحراق داره إذا لم يسلمه. وقد أثار هذا التهديد عمر بك، مع ما في نفسه من رواسب، فامتنع عن تسليمه و«جمع إليه طائفة الأرنؤد وصالح آغا قوج جاره» استعدادًا للمواجهة. وقد توجه محمد علي نفسه على رأس قوة إلى بولاق في يوم الخميس: ١٣ صفر ١٢٢٤هـ/ ٣٠ آذار ١٨٠٩م حيث «حصل قلقة وانزعاج» كما يشهد الجبرتي. وبعد يومين من التوتر لجأ «الأرنؤدي القاتل» إلى «كبير من كبار الأرنؤد» (دون أن يسميه الجبرتي) فهدد

---

[1] الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ١٦٢.

محمد علي بقتله إذا لم يرسل له رأس «الأرنؤدي القاتل» ، وهو ما حصل في يوم الخميس ١٥ صفر ١٢٢٤هـ/ ١ نيسان ١٨٠٩م وقد انتهز محمد علي هذه الفرصة و«أمر عمر بك الأرنؤدي بالسفر من مصر وقطع خرجه ورواتبه فلم يسعه المخالفة» في أواخر صفر ١٢٢٤هـ/ ١٥ نيسان ١٨٠٩م[١] . ويخبرنا الجبرتي أخيرًا أنه في يوم السبت ٣ جمادى الأولى ١٢٢٤هـ/ ١٦ حزيران ١٨٠٩م «نزل عمر بك الأرنؤدي إلى المراكب من بيته في بولاق وسافر عن طريق دمياط ليذهب إلى بلاده ، وسافر معه نحو المائة وهم الذين جمعوا الأموال» . ولا يفوت الجبرتي هنا الملاحظة بأنه «اجتمع لعمر بك المذكور من المال والمنوال أشياء كثيرة عبّاها في صناديق كثيرة وأخذها معه ، وذلك خلاف ما أرسله إلى بلاده في دفعات قبل تاريخه»[٢] .

وأما فيما يتعلق بصالح قوج فقد كان محمد علي قد قرّر في رجب ١٢٢٤هـ/ آب ١٨٠٩م إرسال قواته إلى الصعيد لمحاربة أمراء المماليك ، وحرص على إرسال زعماء «الأرنؤد» على رأس هذه القوات مثل صالح قوج وأحمد بونابرته وحسن باشا وعابدين بك (أخوة طاهر باشا) وغيرهم . وفي جمادى الأولى ١٢٢٥هـ/ حزيران ١٨١٠م «وصلت الأخبار بأن حسن باشا وصالح قوج وعابدين بك وعساكر الأرنؤد وصلوا إلى ناحية حول والبرنبل فوجدوا المصريين جعلوا متاريس ومدافع على البحر فحاربوهم حتى أجلوهم عنها» . ولكن أمراء المماليك عادوا و«دهموا الأرنؤود من كل ناحية فوقع بهم مقتلة عظيمة وأخذوا منهم عدة بالحياة»[٣] . ومع ذلك فقد أخذت «حسن باشا وصالح قوج وعابدين بك ومن معهم» البادرة مرة أخرى وصعدوا جنوبًا و«ملكوا

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ٣: ١٨٣.

(٣) المصدر السابق ٣: ٢١٠.

البنادر حتى جرجا»[١] . ويبدو أنه بسبب ذلك أمر محمد علي بتعيين صالح قوج حاكمًا على أسيوط في نهاية ١٢٢٥هـ/ كانون الأول ١٨١٠م[٢] .

وفي ذلك الوقت كان محمد علي لا يزال يحتاج إلى زعماء «الأرنؤد» حتى يتخلص تمامًا من أمراء المماليك ، وهو ما نفذه فيما سمي بـ «مجزرة القلعة» في يوم الجمعة ٦ صفر ١٢٢٦هـ/ ٢ آذار ١٨١١م . ويكشف الجبرتي هنا أن محمد علي قد أسرّ بما يريده لثلاثة فقط من زعماء «الأرنؤد» (حسن باشا وصالح قوج والكتخدا) بينما أبلغ الرابع (إبراهيم آغا آغات الباب) بذلك في صباح ذلك اليوم . ويضيف الجبرتي أنه عندما اكتمل دخول موكب المماليك إلى القلعة «أمر صالح قوج بغلق الباب وعرّف طائفته بالمراد فالتفوا ضاربين بالمصرية»[٣] .

وبعد أن قتل أمراء المماليك في القلعة «أصبح يوم السبت والنهب والقتل والقبض على المتوارين والمتخفين من المماليك في أحياء القاهرة» . و«أكثر من كان يقبض عليهم عساكر حسن باشا الأرنؤدي فيكبسون عليهم في الدور أو الأماكن التي تواروا فيها واستدلوا عليهم فيقبضون على من يقبضون عليه وينهبون من الأماكن ما يمكنهم حمله»[٤] . وبعد هذه «المجزرة» أصبح في وسع محمد علي أن يرسل خيرة قواته إلى الحجاز لمواجهة الدولة السعودية الناشئة هناك بناء على أمر السلطان العثماني . وقد استعرض محمد علي في يوم الأحد ٦ ربيع الأول ١٢٢٦هـ/ ٣١ آذار ١٨١١م موكب الجيش الذاهب إلى الحجاز بقيادة ابنه طوسون باشا . وقد وصف الجبرتي هذا الموكب الذي تصدّره «عشرة مدافع كبار... وخلفهم طوائف العسكر الرجالة أرنؤد وأتراك وسجمان وهم كثيرون

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٢١٣.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٢٣.

(٣) المصدر السابق ٣: ٢٢٤.

(٤) المصدر السابق ٣: ٢٢٧.

ثم كبارهم ركبانًا بطوائفهم»[١] .

وبعد ذهاب هذا الجيش الكبير إلى الحجاز ، الذي سحب معه الكثير من «الأرنؤد» وكبارهم ، شعر محمد علي بالأمان فذهب إلى الإسكندرية في منتصف ربيع الأول ١٢٢٦هـ/ ٩ نيسان ١٨١١م ، حيث «اجتهد ببناء أسوار إسكندرية وجدد بها أبراجًا وحصونًا» ، إلى أن عاد إلى القاهرة في آخر الشهر . ويخبرنا الجبرتي هنا عن أمر مهم تزامن مع وصول محمد علي ، حيث «وصلت عساكر كثيرة من الأرنؤد والأتراك حتى غصّت بهم المدينة فلا يكاد المار يقع بصره إلا عليهم أمام وخلف وبداخل الأزقة والعطف ، وذلك خلاف الذين أقرهم وأبقاهم (محمد علي) في الإسكندرية ومن هو بالجهات والأقاليم القبلية والبحرية»[٢] .

ومن ناحية أخرى فقد وردت آنذاك الأخبار من الجيش المرسل إلى الحجاز ، وبالتحديد عن هزيمته أمام القوات السعودية في الصفراء التي حدثت في ١٧ ذي القعدة ١٢٢٦هـ/٣ كانون الاول ١٨١١م . ويكشف لنا الجبرتي عن الفوضى التي حلّت بالجيش إثر ذلك خلال انسحابه إلى ميناء ينبع . وفي هذا الإطار يبرز لنا الجبرتي كيف أن صالح قوج « كرّ راجعًا إلى القصيد واستقل برأيه لأنه يرى في نفسه العظمة وأنه الأحق بالرئاسة ويسفه رأي المحروقي وطوسون باشا ويقول : هؤلاء الصغار كيف يصلحون لتدبير الحروب» . ويضيف الجبرتي أن كل ذلك وصل إلى محمد علي في القاهرة فـ «حقده في نفسه ، وتمم ذلك بسرعة رجوعه إلى القصير ولم ينتظر إذنًا في الرجوع أو المكث»[٣] .

وفي الواقع لم يكن الأمر يتعلق بصالح قوج فقط بل بثلاثة آخرين من زعماء الأرنؤد (محو بك وسليمان آغا وخليل آغا) الذين كان محمد علي يعتبرهم من

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٢٣١.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٣٣.

(٣) المصدر السابق ٣: ٢٣٧-٢٣٨.

أسباب الهزيمة التي لحقت بقواته في الحجاز. ومن هنا فقد شكّل وصول هؤلاء الزعماء إلى القاهرة في آخر جمادى الثانية ١٢٢٧هـ/ ٩ تموز ١٨١٢م فرصة للمواجهة الأخيرة بين محمد علي وزعماء «الأرنؤد» الذين كانوا يعتبرون أنفسهم من الأنداد له. وهكذا يخبرنا الجبرتي كيف أن هؤلاء طلعوا إلى القلعة في ٣ رجب ١٢٢٧هـ/ ١٣ تموز ١٨١٢م للسلام على محمد علي الذين كان منزعجًا لأنه طلب قدومهم «مجردين دون عساكرهم ليتشاور معهم فحضروا بجملة عساكرهم». في تحد واضح له، خاصة وأنه «ثبت عنده أنهم هم الذين كانوا سببًا للهزيمة». ويوضح الجبرتي أنهم بقوا على هذه الحالة حوالي عشرين يوما و«أمرهم في ارتجاج واضطراب وعساكرهم مجتمعة حولهم»، إلى أن قرّر محمد علي «قطع خرجهم وعلائفهم» وطلب منهم مغادرة مصر[١].

ويكشف الجبرتي هنا عما حلّ بهم إثر هذا القرار الحاسم. فقد «شرعوا في بيع بيوتهم وتعلقاتهم، وضاق ذرعهم وندر طبعهم إلى الغاية، وعسر عليهم مفارقة أرض مصر وما صاروا فيه من التنعم والرفاهية والسيادة والإمارة والتصرف في الأحكام والمساكن العظيمة والزوجات والسراري والخدم والعبيد والجواري»[٢]. ويذكر الجبرتي بهذه المناسبة كيف أن محمد علي كان حريصًا على أن يسافر صالح قوج بأقصى سرعة خشية أن يثير بقية زعماء «الأرنؤد» ضده، وهو ما ثبت بعد ذلك. ولم يتوان محمد علي، كما يكشف الجبرتي، عن دفع كل ما طلبه صالح قوج «حتى أنه أنشأ مسجدًا بساحل بولاق بجوار داره وبنى له منارة ظريفة واشترى له عقارًا وأمكنه وقفها على مصالح ذلك المسكن فدفع له الباشا جميع ما صرف عليه»[٣]. وفي هذا الحال لم يفت الجبرتي كيف أن محمد علي بالغ في

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٢٤٧.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٤٧.

(٣) المصدر السابق ٣: ٢٤٩.

العطاء لبقية زعماء «الأرنؤد» كحسن باشا وعابدين بك (أخوة طاهر باشا) لكي ينفكوا عن صالح قوج وجماعته «حتى مالوا عنه وفارقهم الكثير من عسكرهم وانضموا إلى أجناسهم المقيمين عند حسن باشا وأخيه»[١] . وبعد كل هذا التمهل ، الذي كان له سببه كما سنرى ، جاء يوم الخميس ١٩ شعبان ١٢٢٧هـ/ ٢٨ آب ١٨١٢م ليشهد سفر صالح قوج حيث «صحبه نحو المائتين ممن اختارهم من عساكره الأرنؤدية وتفرق عنه الباقون وانضموا إلى حسن باشا وأخيه عابدين بك وغيرهما»[٢] .

ويبدو أن تصرف أو تحمل محمد علي كان له ما يبرره ، إذ أن تخلصه من صالح قوج ساعده على التخلص من آخر زعيمين معارضين له من «الأرنؤد» الذين كان يحسب لهم حسابهم ، فمع انتشار خبر قطع محمد علي لـ «خرج» المذكورين (صالح قوج ومحو بك وسليمان آغا وخليل آغا) وأمرهم بالسفر من مصر أرسل إليه أحمد بك ، وهو من «عظماء الأرنؤد وأركانهم» كما يصفه الجبرتي ، إلى محمد علي يطلب منه أيضًا «قطع خرجه» لكي يسافر مع أخوانه ولكن محمد علي ردّ عليه بلطف نظرًا لما كانت له من مكانة ، إلا أنه انتهز فرصة مرضه فـ «أرسل حكيمه فسقاه شربة وفصده فمات من ليلته» . كما يكشف الجبرتي . ومن هنا فقد كانت جنازته في آخر رجب ١٢٢٧هـ/ ٧ آب ١٨١٢م تعبّر عن مكانته ، حيث «خرج أمامه صالح آغا وسليمان آغا وهم راكبون أمامه ، وطوائف الأرنؤد عدد كبير مشاة حوله»[٣] .

أما الزعيم الآخر المهم الذي تخلص منه محمد علي بهذه المناسبة فقد كان أحمد آغا .وكان أحمد آغا كما يصفه الجبرتي «عظيمًا فيهم ومن الرؤساء

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٤٨.

(٣) المصدر السابق ٣: ٢٤٧.

المعدودين، صاحب همة وشهامة وإقدام، جسورًا في الحروب والخطوب، وهو الذي مهد البلاد القبلية وأخلاها من الأجناد المصرية». وفي ذلك الوقت كان احمد آغا «حاكم قنا ونواحيها»، عندما مرّ به في طريق العودة صالح قوج وجماعته، الذين أخبروه عن مخاوفهم من انقلاب محمد علي عليهم. ولذلك فقد اتفقوا على أنه إذا تحقق ذلك يكتبون له فـ «يأتيهم على الفور بعسكره وجنده وينضم إليه الكثير من المقيمين بمصر (القاهرة) من طوائف الأرنؤد كعابدين بك وحسن باشا بعساكرهم لاتحاد الجنسية»[1]. ولما قطع محمد علي «خرج» المذكورين وأمرهم بالسفر أخبروا أحمد آغا بذلك فكتب إلى محمد علي يظهر انشقاقه ويطلب إليه السفر مع إخوانه. ولكن محمد علي أبقى حامل الكتاب في القلعة إلى أن تأكد من سفر قوج وجماعته فرد على أحمد باشا بالموافقة وطلب منه أن يأتي وحده إلى القاهرة دون قواته، وهكذا وصل أحمد بك إلى القلعة مع خمسين من رجاله فقط ليلة ٢٧ رمضان ١٢٢٧هـ/ ٤ تشرين الاول ١٨١٢م، حيث أنبه محمد علي على ما فعله ثم أمر بقتله وقت السحور[2].

وبهذا يمكن القول أن محمد علي تمكن أخيرًا في ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م من التخلص من كبار زعماء «الأرنؤد» الذين كانوا يتعاملون معه بندية كواحد منهم مع أنه أصبح واليًا على مصر، وبقوا لذلك يشكلون مصدر إزعاج أو تهديد لمشروعه في بناء دولة مركزية حديثة. وبالمقارنة مع هؤلاء فقد حرص محمد علي على أن يبقى إلى جانبه حسن باشا وعابدين بك (أخوة طاهر باشا) بما كان يغدقه عليهما. وفي غضون ذلك كان الجبرتي قد نقل لنا في حوادث ربيع الثاني ١٢٢٤هـ/ أيار ١٨٠٩م خبرًا مهمًا يتعلق بوصول «زوجة الباشا أم أولاده وابنه

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٤٩ـ ٢٥٠.

الصغير واسمه إسماعيل ... وكثير من أقاربهم وأهاليهم ، حضر الجميع من بلدهم قوله إلى إسكندرية» . ويعلق الجبرتي هنا على ذلك بالقول أنه «لما طابت لهم واستوطنوها وسكنوها وتنعموا فيها أرسلوا إلى أهاليهم وأولادهم وأقاربهم بالحضور ، فكانوا في كل وقت يأتون أفواجًا نساءً ورجالًا وأطفالًا»[١] . ولا يخفى هنا أن محمد علي اعتمد على هذه «الموجة الجديدة» في تكوين السلالة الحاكمة الجديدة التي أصبح لها امتدادها العسكري والمدني[٢] .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ١٨٧.

(٢) للمزيد حول عائلة/ سلالة محمد علي والنخبة الجديدة التي اعتمد عليها انظر : الأمير عثمان إبراهيم ـ كارولين وعلي كورخان : محمد علي الكبير ـ خصوصيات عائلة ملكية ، ترجمة هدى كشرود ، القاهرة ـ المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٥؛ روبرت هنتر : مصر الخديوية ـ نشأة البيروقراطية الحديثة ، ترجمة بدر الرفاعي ، القاهرة ـ المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٥.